بين الحقيقة والخيال:

صـــديق . . !

للأستاذ محمد محمد الأبشيهي

خلوت إلى نفسي يوماً أسائلها: «أين هو الصديق الذي يسكن إليه قلبي، وتهدأ حياله نفسي، فيصفيني وده، ويمنحني مما يمنح منه نفسه؟ فقد بلوت من خير الناس وشرهم، ما يوشك أن يزهدني في عشرتهم، ويجنح بي إلى العزلة عن هذا المجتمع الصاخب، وحاولت أن أصطفي من الأصحاب من يفرج أمري، ويكشف لي وجه الصواب في هذه المشكلة العاصية، فإذا يداي تصفران، وإذا أنا أخلد إلى الراحة في ظلال اليأس، وإلى الهدوء على بساط الشوك.. وساءلت نفسي.. ربما كانت النفعية الجامحة والمادية اللاهية، هما أس الفناء، وأصل البلاء، حين ينظر الصديق من زاويتها إلى الصديق، فكلما تحدر إليه خيره هش له وبش، ولقيه باسم الثغر، مشرق المحيا، فهو صديق العمر، وشقيق الروح، وإلا أنكره، فغاضت الابتسامة، وفتر اللقاء وتقطع بينهما، وحال الأمر إلى عداوة، وأشباه هذا هم الكثرة الكاثرة فيمن يلاونني، حتى الذين ينالهم رفدي، لا أحس لما يبدونه نحوي بحرارة، ولا لما ينسجونه حولي بصدق، وأنظر يوماً فإذا بي أنشد:

«إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا»

وأتناول بيدي مصباح (ديوجين) أفتش به في ثنايا الزمن، عن بغيتي من هذه الحياة، ولكن.. هيهات!... ولبثت كذلك حيناً من الدهر، يمر بي في طوافي أشتات من الناس، تباينت طباعهم، وتلونت مذاهبهم، لا يحسون بي، ولا أحس بهم، لبعد ما بيني وبينهم، فما جامعة تجمعنا، في الرأي والفكر والذوق، أراهم من غير جنس وإن كانوا بشراً، والمح على معارفهم لؤم الطباع في ثنايا الإشراق، وسمار الطمع في مخايل الرضى، فلويت عنقي، وأشحت بطرفي، وطويت عنهم كشحاً، وفزت من الغنيمة بالإياب، بعد رحلة لاغبة، وجهاد واصب، و..

وشعرت بيد ربتت على كتفي. وأنفاس حانية، ترف على قلبي، فأحسست برد الراحة يسري في أوصالي، وغشيت النعيم يغمر جوانحي. قال — وقد مثل حيالي قائماً — أنا إذا ضالتك المنشودة. وأملك المفقود، وأملك أن تجد العوض في شخصي من أحلامك الذاهبة، فأقضي حاجتك، وأذكي جرحك، فتنأى بنفسك عن مواطن اليأس، وتعلم أنه ما زال في الدنيا صديق، ترتاح له، وتبلو من سجاياه ما تقر به عينك، ويثلج به صدرك. ستقودني إلى حيث تريد، وستلقاني مطواعاً ذلولا، لا أبعثك على غضب، أو أشرف بك على بأس... فصدقته حين لمحت في حديثه دلائل الصدق، وشمت من لهجته علائم الجد، وأنست به وسكنت إليه، وجلت به في ميادين الحياة جولات موفقة، وعشت به زمناً ليس بالكثير، حدثت نفسي في خلاله أن أعفي كل أثر لحكمي السابق على الصديق ما دام في الناس أمثال هذا الذي فني في شخصي، وكان لي أطوع من بناني، وألزم من ظلي، إذاً فلقد تجنيت على الإنسانية، وأجرمت في حق الإخاء، فهذا صديق يهفو إلى الخير لوجه الخير، ويطرب بالوفاء لأجل الوفاء، وإذاً فلتهدأ بلابلي، ولتمض الحياة قدماً في كنف الصداقة الصادقة، وظلال العيش الرغيد!.. ورأيته يوماً — على غير عادة — عابس الوجه، ترمي عيناه بالشرر، منتفخ الأوداج، يكاد يتميز من الغيظ، فابتدرته: «ما بالك». فأجاب — في غير تحفظ ولا استحياء — لقد خاب أملي فيك، وصوح عود الصلة بيني وبينك، فما أنا بالذي يستمسك بك، وقد نهشت عرضي، وجحدت فضلي، وأذعت في الناس بأحاديث السوء من خدنك الذي غره فيك حسن السمت، واصطناع الوقار، فقاطعته قائلا: «على رسلك يا صديقي، فلعلها أن تكون سعاية حاسد، أو زراية جاهل. وما حسن أن تجبهني بالثورة، وتطلع علي بالعنف، قبل أن تتبين» فأصم أذنيه، وولى مدبراً ولم يعقب، وعدت لنفسي أنني لم أتزحزح قيد أنملة عما رسب في أغوار نفسي عن الصداقة والأصدقاء. وإذاً فالمشكلة ما زالت قائمة، ولا أبرح أنشد الصديق الصدوق بين الحقيقة والخيال، فياليت شعري من يدلني عليه، فينقذني من ألم مرمض، وأسى لا يريم، إن بين اليأس والأمل صراعاً، وفي النفس من هذا المجتمع المريض لوعة وحيرة

محمد محمد الأبشيهي